

الدور الاجتماعي والنفسي لبواكير التصوف في المغرب الأوسط (الجزائر)

د. عبد الكريم بليل *

الإرسال:	2018/08/15	القبول:	2019/10/04	النشر:	2019/12/31
----------	------------	---------	------------	--------	------------

الملخص باللغة العربية:

تعتبر الجماعة الصوفية من الهيئات الاجتماعية المشاركة في التنشئة الاجتماعية، وقد أدت دورا نشطا في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن السادس إلى الثامن الهجري؛ حيث تكثف تواجدها ونشاطها في زمن احتاجها المجتمع لقيادة الإصلاح الاجتماعي، والتأطير النفسي الجمعي؛ بعد توالي الحروب والأزمات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

في ذا البحث نسعى لبيان إشكالية الدور الاجتماعي والنفسي للتصوف في الجزائر حين بدأ ظهوره، لذا نتساءل عن الأحوال والأوضاع الاجتماعية المساعدة لظهور الصوفية، وما هي الإصلاحات الاجتماعية والنفسية التي قدمها صوفية الجزائر؟

الكلمات المفتاحية: التصوف، الصوفية، النفس، التنشئة الاجتماعية، التعليم.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: The Sufi community is one of the social bodies involved in socialization, and has played an active role in the Middle Maghreb during the 6th to 8th century, where its presence and activity intensified at a time when society needed to lead social reform, and associative psychological framing; Wars and political, economic and military crises.

* - جامعة الشاذلي بن جديد، ولاية الطارف، الجزائر، أستاذ محاضر أ. [Bellil.krimo@yahoo.fr].

In this research we seek to demonstrate the problem of the rapid spread of the clash in Algeria, so we wonder about the social conditions and conditions that help the emergence of Sufism, and what social and psychological reforms presented by Sufism of Algeria?

Keywords: Sufism, Sufism, psychology, socialization, education.

مقدمة:

علم التصوف في تاريخه ونسقه المعرفي علم قائم أولا على النظر في باطن النفس، فتعارف عليه الأوائل بعلم القلوب، وعلم الباطن، علم الأخلاق، وعلم السلوك، وكلها تجتمع فيه؛ ثم تفترق عنه بعد تبلورها، فتنشق علوما بأبواب خاصة، بعد مرحلة التراكم المعرفي والنضوج الموضوعي، وتراتبية الأبواب، وتمايز المواضيع، وتدقيق المفاهيم.

والتصوف بصوره مؤسس لعلم النفس الديني من زاويته الخاصة به، حيث يتناول جميع الظواهر التي تخوض فيها علوم النفس الأخرى: علم النفس التحليلي، علم النفس السلوكي، علم النفس الاجتماعي، علم النفس الوجودي.

يبقى أس هذا الفن: هو إصلاح النفس الباطنة، سواء بإصلاح ظاهرها أو سلوكياتها، بالمجاهدات الجسدية أو الرياضات القلبية. فموضوع العلم هنا هو النفس وباطنها، وغايته في مباحثه؛ هي سبل إصلاحها للغاية العظمى؛ وهي القرب من الله تعالى والنجاة في الدنيا والآخرة.

نلمس عبر مراحل تواجد التصوف وانتشار الصوفية تاريخيا، أن فترات تواجدهم أو مناطق انتشارهم - في الغالب - يسبقها فشو مظاهر الانحراف، وقلة تأثير الخطباء في العامة، وضعف مفعول نشاطهم في الناس، كما يسبقهم تصدر أهل الترف للواجهة الاجتماعية والسياسية، وتسابق أهل الشظف للتشبه بهم أو التملق لهم. وهنا ترق قلوب الناس، وتبتعد عن شعائر الله تعالى، وتقسى القلوب على بعضها، ويقل الواعظون، فيخفت الاتعاظ بين العامة والخاصة من النوازل والنوائب التي تحل بهم.

والبعد النفسي في مفهوم الصوفية يدور على معنى " الاستحواذ الشعوري، وهو امتلاك موضوع -أو شخص- لكامل الشعور، بصورة تستدعي التركيز الكامل على الموضوع أو ذلك الشخص، دون قابلية -ولو جزئية- للانفلات من سطوة جاذبية"⁽¹⁾.
لم يظهر التصوف في المغرب العربي معاصرا للمشرق العربي؛ بل تأخر حتى عهد المرابطين في أوائل القرن الخامس الهجري، وظهرت الطرق الصوفية في الجزائر في حوالي القرن السادس الهجري، و البعض يؤرخ لها منذ عهد **أبي مدين الغوث** (ت594هـ)⁽²⁾. فهو واضح أول طريقة عرفت هنا بالجزائر وهي الطريقة المدينية، التي نشرها في بجاية وضواحيها، وتخرج على يديه المئات بل الآلاف من الطلبة ممن لهم الولاية⁽³⁾، وهو تلميذ على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني وألبسه خرقة الصوفية⁽⁴⁾.
ولم يكن التصوف المغاربي قد عرف علوم المكاشفات والحقائق، بل تمثل في صور الزهد والنسك والمجاهدة، فكان هنالك اختلاط بين الصوفية والفقهاء، ولم يتميز كل فريق عن الآخر، لأنهم لم يشهدوا الصراع القائم في المشرق بين الفقهاء والصوفية، ولبعد التصوف المغاربي عن المظاهر المخالفة للشريعة، وعن دعاوى الباطن و التفريق بين الشريعة والحقيقة، فكان ظاهر للباحثين أن أكثر المشايخ الصوفية بالمغرب العربي من الفقهاء، وأن أكثر الطرق الصوفية كان لها اهتمام بالغ بالعلوم والفنون، فكان بينهم المحدثون والقراء والفقهاء والمتكلمون واللغويون والمفسرون.

لأجل ذلك؛ في منتصف القرن الخامس الهجري فوجئ علماء المغرب بما في كتاب الإحياء لحجة الإسلام **أبي حامد الغزالي**، فأنكروا ما فيه، وتبرؤوا من مقالات التصوف به، وعارضه كثير من الصوفية، وأفتى القضاة وعلى رأسهم **القاضي عياض المالكي** صاحب مصنف " الشفا بتعريف حقوق المصطفى" بحرق الكتاب ومنع قراءته.
وقد مر التصوف بالمغرب الأوسط بمراحل هي:
العصر الأول: يتمثل في زمن **أبي مدين**، في القرن الخامس.

- (1) التصوف وميكولوجية المتسامي بين الدافع والغاية؛ دراسة استكشافية: وليد منير. مجلة إسلامية المعرفة: عمان. العدد 36، السنة التاسعة؛ ربيع 1425هـ/2004م. ص124.
- (2) شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث: عبد الحليم محمود. دار المعارف. ط(1)، دت. ص(51-53).
- (3) البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان: ابن مريم؛ مراجعة: ابن أبي شنب. المطبعة النعلابية: الجزائر. ط(1)، 1908. ص108.
- (4) المرجع السابق: ص112.

العصر الثاني: من القرن السادس إلى السابع زمن الشاذلي.

العصر الثالث: من القرن السابع إلى التاسع، وهو عهد الجزولي.

العصر الرابع: من التاسع إلى الرابع عشر⁽¹⁾.

حاز الصوفية درجة رفيعة في المجتمع الجزائري، لمشاركتهم في الحياة اليومية للمجتمع وقيامهم بمهام: الإرشاد، التعليم، والقضاء، وإصلاح ذات البين، والإيواء، والإطعام. فقد كانت الزوايا نقطة تلاقي أطراف متنوعة ومؤسسات عدة اجتماعية وسياسية وعسكرية ودينية، فهي مركز الدائرة ومحور اهتمام السلاطين والرعية على حد سواء. وظلت وسيطا بين الحكام والرعايا، تسعى لقضاء مصالح الطبقات الكادحة المحرومة، وتعمل على معالجة أوضاع المسلمين بطريقتها الخاصة. تعمل في الأرياف و القرى و المداشر التي كانت بعيدة عن رعاية الدولة، فسدت الفراغ الناشئ عن بعد المسافات بين الحواضر.

في ذا البحث نسعى لبيان إشكالية الانتشار السريع للتصوف في الجزائر، لذا نتساءل عن الأحوال والأوضاع الاجتماعية المساعدة لظهور التصوف، وماهي الإصلاحات الاجتماعية والنفسية التي قدمها صوفية الجزائر؟

وذلك بالرجوع لدراسات وبحوث سابقة عن التصوف الجزائري؛ دور الطرق الصوفية و الزوايا في المجتمع الجزائري: **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها**: الأستاذ صلاح مؤيد العقبي. **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 هجريين 12 و 13 الميلاديين** (نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي): طاهر بونابي. وهذه الدراسة للأستاذ الدكتور بونابي استفدت منها كثيرا للوصول لدقائق المعلومات بكتب التراجم والتاريخ، وتعرفت عن طريقها على العديد من المصادر في التصوف

- **دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري**: طيب جاب الله، مجلة المعارف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الوادي، العدد 14، أكتوبر 2013.

- **الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر: التحول من الديني إلى الدنيوي، ومن القدسي إلى السياسي؛ دراسة انثروبولوجية**: الطيب العماري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية ، جامعة بسكرة، العدد 15، جوان 2014.

(1) التصوف الإسلامي في المغرب: علال الفاسي. مجلة الثقافة المغربية، العدد الأول: السنة الأولى، ذو القعدة 1389 يناير. ص38.

وهي دراسات أكاديمية عن التصوف و الطرق الصوفية شملت جوانب اجتماعية عدة، حاولنا في دراساتنا الاقتصار على التنشئة الاجتماعية و النفسية منها، مع الرجوع لدراسات أخرى عن التصوف عموما بالمغرب العربي الكبير و الجزائر، خاصة موسوعة سعد الله أبو القاسم: **التاريخ الثقافي للجزائر**، و فق منهج تحليلي وصفي تاريخي.

وقد تمت الدراسة وفق الخطة التالية الذكر:

- مقدمة.

- **أولا: السلطة الروحية.**

- **ثانيا: الأوضاع الاجتماعية والنفسية المحفزة لظهور التصوف بالجزائر.**

- أ- الآفات الاجتماعية والنفسية وأثارها.

- ب- الأوضاع الاجتماعية والنفسية قبل ظهور التصوف بالمغرب العربي.

- **ثالثا: الإصلاحات النفسية الصوفية.**

- أ- التنشئة الاجتماعية النفسية.

- ب- إسهامات الصوفية في الحياة الاجتماعية والإصلاحات النفسية بالجزائر.

- الخاتمة.

- المراجع.

أولا: السلطة الروحية الصوفية.

التصوف ممارسة لحياة روحية، تبغي من السالك فيها أن يلزم مرشدا في الدروب، ومعينا في الترقى بين مدارج السالكين. ومن لم يكن له شيخ؛ لم يعهد له سند، ومن فاته؛ فقد شيئا من الأدب، لذا تقرر لدى المؤيدين: أن من كان شيخه كتابه؛ كان خطؤه أكثر من صوابه.

" فمن سلك هذه الطريقة؛ في حاجة إلى خبير سبق له أن درس الطريق وسار فيه، وسلكه وعرف مزالقه ومخاطره، عرفه دراسة، وعرفه ذوقا، وعرفه حالا وشعورا. فهو يرسمه لمن يريد السلوك، ويقوده فيه مرحلة مرحلة، إلى أن ينتهي به إلى القرب والوصول إلى الله عز وجل"⁽¹⁾.

(1) أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها: منال عبد المنعم السيد جاد الله. رسالة دكتوراه. إشراف: محمد علي أبو ريان، فاروق أحمد مصطفى. جامعة الإسكندرية: كلية الآداب، قسم الأنثروبولوجيا. السنة الدراسية: 1990-1991. ص140.

وقد أراد الله تعالى بأن يكون في الأرض صاحب ومصحوب وتابع ومتبوع وشيخ

ومريد، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7]. وهذا دال على مصداقية المعلم الهادي، والدليل المرشد؛ دلالة ضرورة لزومية، لذلك أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، ولو شاء لأنزل كتابا بغير نبي. ولكنه لم ينزل كتابا إلا ومعه نبيه، وسنة الله في خلقه منذ خلق آدم عليه السلام هذا الموقف التعليمي، فعلم آدم الأسماء كلها (1).

ومؤدى ذلك أن لكل علم معلم، ومن يشك في ذلك يخالف الواقع والحس، والمعنى والمعقول والمنقول، وكذلك شأن جميع الصنائع والفنون والأديان (2).

فالنفس التائهة لا بد لها من مرشد؛ فالعليل يطلب الطبيب، وإن فقدت النفس الطمأنينة وابتليت بالاضطراب والقنوط والاكتئاب حيل بينها وبين تدبر سبل السلام، للكدر الحاصل في الذهن، وهو حائل بين التفكير للانتقال بين المقدمات بغية معرفة النتائج، وطلب الحلول الفعلية للحال المرضية، فكان إذ ذاك؛ لا مفر من معالج صحيح النفس، صائب العلم، يهدي للرشاد، ويصلح أعتابها. ليرشد للتزكية الصحيحة، و"التزكية على الرغم من أنها مسألة داخلية؛ لكنها من خلال ممارسات ذاتية مع النفس، وممارسات مع الآخرين. وهي على ذلك تشمل الظاهر والباطن، فلا يكفي أن يتزهد الإنسان في سلوكه الخارجي، دون أن يكون لذلك دافع في سلوكه النفسي" (3). والنفس تجاهد معلولاتها، وهي مذموم الأخلاق وسيء الصفات، وهي أول ما يسعى إليه المريد حال انتهاجه سبل الطائفة، " فأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفتها، ورياضتها، وتهذيب أخلاقها" (4).

قد يظن البعض أن التصوف انهماك في العبادات والرياضات الظاهرة، فيملكون الناحية الخلقية والجوانب النفسية، أو لا يلتفتون إليها، ومثل هؤلاء لا شك مفتونون بعيدون عن التصوف من حيث يظنون القرب، ومردودون من حيث يتوهمون القبول. " فالصوفية رفضوا نفوسهم بالمكابرات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق، وكم من نفس تجيب إلى الأعمال، ولا تجيب إلى الأخلاق، فنفس العباد

(1) الغنية لطايب الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية: عبد القادر الجيلاني الحسني. ص 165.

(2) التصوف الإسلامي بعض ما له وما عليه: محمد زكي إبراهيم. العشيرة المحمدية: القاهرة. ط 0، 1980. ص 19.

(3) في التصوف والأخلاق: عبد الفتاح عبد الله بركة. دار القلم: الكويت. ط (1)، 1983. ص (41-42).

(4) التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد الكلاباذي أبو بكر. دار الكتب العلمية: بيروت. ط (1)، 1400. ص 87.

أجابت إلى الأعمال، وحجبت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها⁽¹⁾.

ثانيا: الأوضاع الاجتماعية والنفسية المحفزة لظهور التصوف بالجزائر:

أ- الأوضاع الاجتماعية والنفسية قبل ظهور التصوف بالمغرب العربي:

تعد مرحلة القرنين السادس والسابع أصعب الفترات على أهل المغرب الإسلامي، فقد شهدت اضطرابات سياسية واجتماعية ونفسية، خلقت جوا من الهلع وفقدان الأمن النفسي، فتولدت مظاهر الفساد العام، وفقدان السلطة الروحية الدينية دفعة التوجيه، وغياب أثر المصلحين والدعاة، بل تحلق الفقهاء بالعلم تنظيرا لا تطبيقا، فقبعت العلوم في بطون الكتب أو صحون المساجد والمدارس. وكان لذلك دورا في تصدر أهل الطائفة؛ حاجة العامة والخاصة إلى دوافع نفسية للمقاومة والصبر والتطلع لأمل أفضل، واصلاح النفوس من نفرتها، وطلب شفاء عليها.

أهم مظاهر هذه مراحل:

أهم مظاهر هذه مراحل:

- احتدام الصراع بين القوى السياسية والعقدية في المغرب الأوسط بين الحماديين والمرابطين والموحدين والحفصيين والزيانيين.
- استفحال الثورات والانشقاقات الداخلية كثورة بني غانية، وهجمات العرب الهلالية وما صحبه من خراب للعمران، وتأثر طرق التجارة، وفساد الزراعة وهلاك المحاصيل، واضطراب الاستقرار البشري⁽²⁾.
- فشل هذه الدول في إقرار العدالة الاجتماعية والحد من التفاوت الطبقي، والعجز عن التصدي لمشكلات الفقر والانهلال الخلقي في فترات وأماكن معينة⁽³⁾.
- تكالب خطر هجمات الممالك النصرانية، واحتلالها لكثير من السواحل على فترات، فعاثت فسادا في الأراضي المحتلة، مع ضعف الدول الإسلامية لفترات متتالية عن صدها⁽⁴⁾.

(1) عوارف المعارف: عبد القاهر بن عبد الله السهروردي. الكتاب العربي: بيروت، ط. 1966، ص 168.

(2) العبر: عبد الرحمن بن خلدون. ج 6، ص (360-361، 393-396).

(3) التشوف: ابن الزيات. ص (89، 90، 449).

(4) العبر: ابن خلدون. ج 5، ص (437-431، 436).

- عدم اهتمام الدول المتعاقبة على الحكم بالمناطق النائية والأرياف، فاقصر التعمير والتعليم والنشاطات الخدمية والعلمية والثقافية داخل الحواضر المتباعدة كثيرا.

- انحصر نشاط العلماء بالمدن الكبرى والحواضر، مما جعل الجهل والأمية، والبدع والخرافات والأساطير، تتفشى بين شرائح العامة من الفقراء والبدو والفلاحين.

- فكانت علاقة العلماء بالعامة خافتة التأثير، إذ أصبحت العلوم نخوية لأهل المال؛ لبلوغ مناصب بالدول والقضاء، وقل تواجد العلماء بالبوادي والقرى، وضعف نشاط الدعاة بين أهل الأرياف، فحدثت غربة بين العامة ودينهم.

- انكفاء الكثير من العلماء والفقهاء على المسائل النظرية، أو مصاحبة ذوي السلطان لتدبير شؤونهم، دون تفريغ شيء من وقتهم للرعية بنشر العلم أو الوعظ، مما جعل نظر العامة للعلماء تتغير بصفاتهم يمثلون طبقة الملأ، لا شأن لهم بهموم الرعية إلا في إخضاعها للراعي، فكان سلطانهم الروحي ضعيفا على العامة.

هذه الظروف القاسية تكالبت على كاهل الطبقات الدنيا، واكتوت بها حتى الطبقات المتوسطة، بل حتى التجار وكبار الأغنياء، وساهمة في التفسخ الأخلاقي، والقنوط من رحمة الله تعالى، فلا خير ولا غير. مما أفقد الناس الأمل في زوال الكربات لعموم الجهل والأمية، وهنا تجلى دور مشايخ الصوفية في النشاط الدؤوب لوعظ الناس ودعوتهم لإصلاح أنفسهم قبل أن يطالبوا بصلاح وضعهم، وحثهم على اللجوء للدعاء والذكر لتفريج الكربات، وإرشادهم للنشاط العلمي والعمل، ونشر المعرفة بين طبقات المجتمع، خاصة أن الصوفية امتازوا عن غيرهم من الطوائف أن نشاطهم الدعوي والعلمي جماهيري مجتمعي، يولي اهتماما بالقرى والبوادي والفقراء والمساكين، فزاد الخير بين العامة لتعلمهم شؤون دينهم وفطنهم في تسيير دنياهم لما اكتسبوا مفاتيح العلوم (القراءة والكتابة). وهذا فضل لا ينكره إلا مكابر، فالتصوف علم يغرس الطمأنينة في قلوب أتباعه، فيخلق الأمن النفسي، وهو أساس الحركة والبناء والتعمير والتفكير والتسيير.

ب- الآفات الاجتماعية والنفسية وأثارها:

كانت الآفات الاجتماعية المتمثلة في تعاطي الخمر والفواحش والدعارة والقمار والميوعة والغش والسرقعة والنهب والربا؛ قليلة الحدوث شاذة بين الظواهر الاجتماعية في المغرب الأوسط قبل القرن السادس عصر الدولتين الحمادية والمرابطية

(1). بيد أن دخول هاتين الدولتين دائرة الترف في أوائل القرن السادس الهجري أدى إلى ظهور هذه الآفات بشكل بارز في بجاية وتلمسان. فالدول في أولها تتسم بالبدواة والبساطة في التسيير والإدارة والعلاقات الداخلية والخارجية، فيكون خلق الرفق شائعا بين أهلها، للتماسك الفكري والعقدي، والوجه الاجتماعي موحد نحو هدف واضح وبسيط؛ يدري كل مكونات الدولة أنه لا يتم بلا تكاتف ووحدة. ويكون من الحاكم ومن تحته من جند وأهل الدولة؛ رفق بالرعية، والقصد في الإنفاق، والتعفف عن أموال الناس. وتتجاف أجهزة الدولة عن الجباية، ويكون منها كياسة وفطنة في جمع الأموال وصرفها، وحينها لا يكون إسراف في النفقة، فلا تحتاج الدولة لكثرة الأموال. ثم يكتمل الاستيلاء على أركان الدولة وشؤونها، وتضبط الحى وترسم الحدود مع الدول والممالك المجاورة، ويعتدل أمر القتال والنزاع، ويستريح المحارب وينزع دروعه ويرتب تروسه، وتهدأ جلبة السياسة بمؤامراتها وحيلها، لتتجه أبصار أهل الدولة نحو الإدارة والتسيير، فيعظم ويستفحل الملك، ويدعو بعد زمن ليس ببعيد عن سابقه إلى الترف، لكثرة المال وقلة الحركة والمشغل، وتضاؤل المخاطر والنوائب. ويكثر الإنفاق بسببه، فتعظم النفقات، ويشيع الترف بين أهل الدولة، ثم يتعدى لأفراد المجتمع خاصة في الحواضر الكبرى، لأن الناس على دين ملوكها، وأهل المدن " أبصر بطرق الفسق ومذاهبه، والمهاجرة بدواعيها، حتى بين الأقارب والأرحام والمحارم "(2). ففي بجاية الحمادية ساد أوائل القرن السادس الهجري ترف في الحياة الاجتماعية. فكان ملك الحماديين في ترف ولهو وولع بالجواري (3)، والعامية تغالط النساء، والنساء تتشبه بالرجال وتبالغ في التبرج، والخمر تباع علنا (4). وقد ساعد المترفين على ارتكاب المعاصي والفجور كون المدينة تشتمل على أكبر سوق للنخاسة في المغرب الإسلامي (5). وكثرت الوافدية من اليهود والنصارى، وشاعت نحلهم وحلهم بين الحماديين في القلعة، حتى

(1) وصف إفريقيا الشمالية الصحراوية: أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي. نشر هنري بريس: الجزائر. ط0. 1039. ص (70-71).

(2) المقدمة: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: تح: حجر عاصي. مكتبة: الهلال: بيروت. ص 85.

(3) أخبار المهدي بن تومرت: أبو بكر علي الصنهاجي البيدق: تح: عبد الحميد حاجيات. المؤسسة الوطنية للكتاب: الجزائر. ط (1). 1986. ص 33.

(4) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: تح: رابع بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر. ط (0). 1981. ص 152.

(5) المرجع نفسه: ص 76.

كثير فيهم التشبه ورقة الدين وقلة الورع، وكثرت المجاهرة بالمحرمات. فقال فيهم أبو الفضل النحوي (ت513هـ/1118م):

أصبحت فيمن له دين بلا أدب ومن له أدب عري من الدين
أصبحت فيهم وحيد الشكل منفردا كبيت حسان في ديوان سحنون⁽¹⁾.

وهذه الآفات التي تخللت المجتمعين الحمادي والمرابطي كان لها صدى أخلاقيا، وتأثيرا اجتماعيا عميقا، مس مبادئ العقيدة الإسلامية والسلوك العام، وانعكس شططا في السلوك - خاصة من ميسوري الحال - بسعيهم الدؤوب لإشباع شهوات البطن والفرج بلا حد ولا حرمة ولا حياء. وسائر الغرائز وملذات الدنيا كانت قائدا لهم؛ هم والهائم سواء في ذلك.

يقع الأثر الأولي لاضطراب السلوكيات الاجتماعية على الانفعالات النفسية، فيكثر الهوس بالشذوذ في جميع التصرفات، ويحدث الفراغ الروحي الذي يولد مرض الاكتئاب المزمن، كما يُشبع الأنا لدى الفرد المنحرف، مما يفقده القابلية على التفاعل مع محيطه إلا في إطار الاستفادة الشخصية منه لأقصى حد، فإن لم يصل لمراحله جعل منه عدوا، ودخل في حالة صراع معه، وهنا تختفي الطمأنينة والسكون لدى الفرد، ويكتسب التوتر الدائم في التفكير والتصرف، وينقطع الأمل في الغد الأفضل. هذه الحالة تنعكس على السلطة السياسية والرعية بطبقاتها، فتزيد الرسوم والجبايات والمصادرات للأموال، ويقل من نظام الدول الالتفات للفقراء والضعفاء، بل ينظر إليهم على أنهم عبء يستحق التجاهل، أو يسعى للتخلص من وجوده، ثم تكثر آفات الرشوة والنهب والسرقة وقطع الطريق، واستغلال أفراد المجتمع والمساومة على المواقف والفتاوى؛ بل وحتى الأعراض. فيتفكك المجتمع لتفكك البنية الأساسية لتكوينه وهي النفس المطمئنة.

هذا الوضع المزري ببلاد المغرب الأوسط دفع لبروز التصوف كتيار ونزعة دينية بشرية طبيعية، بعد أن زاد الانحراف عن حده، واستفحل الانحلال لدرجة لا تطاق، فكان رد فعل نقيض، يسعى للعفة والزهد في شهوات النفس والبطن، والارتقاء بالإنسان من الخطايا والمعاصي إلى الأخلاق الفاضلة، ومن مراتع الهيمنة إلى معالي الروحانية الملائكية.

(1) التشوف إلى رجال التصوف: أبو يعقوب يوسف بن الزيات النادلي؛ تج: أودلف فور. مطبوعات إفريقيا الشمالية: الرباط. ط (1)، 1958. ص 74.

وكان من عجز جهاز الحسبة والقضاء والفقهاء في الدولتين الحمادية والمرابطية في محاربة هذه الآفات الاجتماعية⁽¹⁾، أن تتطلع العامة من المتدينين إلى قوى تقودهم لتطهير وسطهم الاجتماعي من هذه الآفات، مما أدى إلى ظهور شريحة المتصوفة التي حملت على عاتقها مسؤولية مكافحة هذه الآفات والحد منها⁽²⁾. وسعي العامة لقصد من يأخذ بيد الحكام ليكفوا عن إثقالهم بالرسوم والجبايات، ويعظوا الأغنياء بأن ينظروا للفقراء. مما يؤكد أن التصوف جاء كرد فعل على الآفات الاجتماعية، كونه ظهر وتطور في نفس المدن التي تتواجد بها هذه الآفات.

ومناهج الصوفية في الوعظ والتذكير واحتقار الدنيا جعلت من العامة بل والخاصة تسيير للدخول في الهدوء النفسي الذي فقد بعد التصارع والتسابق على حطام الدنيا، كما جعل من الحاضرين لمواعظ ودروس مشايخ الطريق يستشعرون حالة من الطمأنينة والروحانية واللذة الروحية؛ كانوا فقدوها أو لم يعرفوها من زمن غير علمهم. فالإنسان بصلب تركيبه أُجْري؛ ساع نحو تحقيق سعادته بأي صورة كانت، وبأي أسلوب أو وسيلة، فما إن يظفر بالسعادة المكسبة للطمأنينة والراحة النفسية، لا يهتم كيف ولا كم، ومن رام تدبر مصداق ذا؛ فليمتعن ببصره في نحل الناس وأحوالهم، فقد يبتاع واحد منهم بثروته شربة، ويبيع أحدهم كبده بنشوة، وكلاهما مطلهما واحد. وأكد علم النفس الفلسفي أن ميل الإنسان الأعمق وعيا؛ هو ميله نحو السعادة، ولكنه بين في الوقت نفسه أن هذه السعادة على المستوى الشعوري، مهمة وغير محددة رغم ارتباطها بالإرادة⁽³⁾.

والمعرفة الصوفية النفسية مبنية على مصطلحات صاغها أهل الطائفة لغة لعلمهم وتأصيلا لفهم، بدلالات خاصة بهم، من جهل دلالتها الاستعمالية وأجراها على دلالتها المعجمية؛ التبس عليه فهم مرادهم وإدراك مقصدهم. وفي جملتها تشير لأحوال واستعدادات وأمزجة وملكات وانفعالات واستجابات نفسية مختلفة. ومجموع المبادئ النفسية الصوفية مستنبطة من القرآن والسنة، مثل المراقبة والتزكية والاطمئنان

(1) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيا العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعبر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. دار الكتاب اللبناني: بيروت. ط 0، 1983. ج 6، ص 363.

(2) التشوف: ابن الزيات. ص 89.

(3) علم النفس الفلسفي: دونيميل جي ف؛ تر: سعيد أحمد الحكيم. دار الشؤون الثقافية: بغداد. ط 0، 1986. ص (155-156، 158).

وقمع الهوى والصبر؛ يقول تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدر: 38]. ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: 4]. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 1-2]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28].

هنا كان الزهد والخشوع والصدق واليقين والرضا والطمأنينة والغبطة وجوها متعددة لتوطين النفس على محبة الله تعالى واليقين به، ولابد للعقل والقلب والجوارح أن يكون لها أثر ملحوظ في ربط النفس بأفقها الأعلى، ما دامت التجربة النفسية في مجموع معطياتها ليست مفصولة بفترة زمنية عن العناصر التكوينية الأخرى للإنسان.

يتربك النظام التربوي النفسي الصوفي من نسق سلوكي ونفسي داخلي متكامل، خاضع للمنظور الصوفي إلى دلالة النفس ومفهومها، الكامن في دورها المحوري في عملية الارتقاء الروحاني، وهو مفهوم أساسي رئيس يوجه جل الفروض والاستنباطات صوب بلوغ الغاية المرجوة.

وأس تأصيلاته؛ الاستعداد النفسي والقابلية المتفاعلة للميل نحو المعرفة الروحية، وامتلاك الذوق الميال للطائفة الروحية.

ثالثا: الإصلاحات النفسية الصوفية.

أ- التنشئة الاجتماعية النفسية:

يعد موضوع التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي من الموضوعات الهامة التي شغلت العلماء المتخصصين في مجالات علم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا. تحتوي عملية التنشئة الاجتماعية على مجموعة من الخطوات التي تساعد الفرد على التكيف مع البيئة أو المجتمع من خلال التعرف على عاداته وتقاليده وقواعده وقيمه ونظمه ومعاييرها. فعملية التنشئة الاجتماعية قائمة أساسا على ترويض وتعليم الفرد لقوانين المجتمع ونظمه⁽¹⁾.

تعتبر الجماعة الصوفية من الهيئات الاجتماعية المشاركة في عملية التطبيع أو التنشئة الاجتماعية، والتي تحتوي على مجموعة من الأنماط السلوكية، تساعد الفرد

(1) المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية: فاروق أحمد مصطفى. ج2، ص313.

على التواؤم والتكيف مع البيئة الاجتماعية ليصبح عضوا صالحا ومتعاوناً وذا كفاءة في هذه الجماعة وفي المجتمع الأكبر. فالطريق الصوفي قائم أساساً على تركية النفس وتطهيرها، سواء أطلق عليها تربية أو تطبيع أو تنشئة أو تهذيب أو تكوين.

امتاز الصوفية عن غيرهم بالتعمق في معنى التربية، فقد استبعدوا منذ البداية أن يكون سلوك الفرد مجرد تلقين لمبادئ وقواعد وتعاليم الدين، بل أدركوا حقيقة كونها تكوين للشخص نفسه أو تهذيب للشخصية. هذا التكوين يشمل الاهتمام بالعبادة والذكر والافتداء، والعناية بتركية النفس بتطهيرها وتخليتها وتحليتها، وهذا كله يدور حول إصلاح الجانب الروحي وعدم الاكتفاء بالحياة الظاهرة.

أكد ذلك الدراسات النفسية والاجتماعية عن عملية التطبيع أو التنشئة الاجتماعية؛ بأنها عملية مستمرة يمكن أن يمر بها الشخص حتى في مراحل العمر المتأخرة، من خلال التوجيه والتفكير والموعظة والنصيحة، والمشاركة والممارسة وغيرها من الأسباب المختلفة للتنشئة الثقافية⁽¹⁾.

فدور التصوف في حقل التربية والتنشئة دور عميق، لأن مهمته الأساسية هي تهذيب الشخصية البشرية من جميع جوانبها، حتى تبلغ الغاية من تحقيق واستكمال كفاءاتها. لأجل ذلك اختلفت عمليات التنشئة الاجتماعية باختلاف مناهج الطرق الصوفية ومؤسسيها، مما يشير لتنوع أنماط الممارسة الصوفية وتعددتها بما يتناسب وشخصيات المريدين وصفاتهم، وهذا التنوع كامن في مجال معاملة النفس وصفاتها.

فالطريق الصوفي مجاهدة للنفس والشيطان، مما يدل على صعوبة الطريق إلى الله، ومعاناة المريد طوال الطريق، خاصة في بدايته. والمقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة؛ تركية النفس وتصفيها وتهذيب أخلاقها، فالنفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجري بطبيعتها في ميدان المخالفة، والعبد يرددها بجهد عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها في فسادها. قال الجنيد في تفسير قول الله تعالى ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: 53)، هي الداعية إلى المهالك، المعينة للأعداء، المتبعة للهوى (2). ولما عرف عن الأنفس صعوبة تخليتها من الصفات المذمومة وتحليتها بالصفات الحمودة

(1) المرجع السابق: ص 318.

(2) الرسالة القشيرية: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي؛ تج: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار الشعب: القاهرة. ط (0). 1989. ص 394.

وترقيتها عبر المقامات؛ جعل الصوفية يقرون بمجاهدة النفس، بل يرون أن بصلاحتها يتغلب الإنسان على الشيطان وسائر ملذات الدنيا. فالنفس إن صفت وتزكت؛ حسنت أفعال البدن، والطريق إلى التزكية: اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة، حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرار- مع تقارب الزمان- حدث منها هيئة للنفس الراسخة؛ تقتضي تلك الأفعال، بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع، فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير. فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود؛ فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد، وهو بذل المال، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه، فيصير بنفسه جوادا. كذلك بأفعال البدن، تتكلف فيحصل للنفس صفة، وإذا حصلت الصفة؛ فاضت على البدن، فاقترضت وقوع الفعل الذي تعود به بعد أن كان يتعاطاه تكلفا، والأمر كذلك في النفس؛ تخلق ناقصة، وإنما تكمل بالتزكية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم (1).

أجمع المتصوفة في مصر والمغرب على أن تنشئة المريد في الطريق الصوفي تتم بترقي النفس في مراحلها المختلفة، للوصول إلى النفس الكاملة. ومراحل النفس عند أهل التصوف أقسامها أربعة؛ هي:

" النفس الأمانة بالسوء " و" النفس اللوامة " و" النفس الملهمة " و" النفس المطمئنة "، ثم زيدت إلى سبع، ولكل منها صفات وأوصاف تدل وتشير إلى الصفات التي لا بد للمريد التخلص منها، والصفات التي لا بد له التحلي بها للترقي في مقامات الطريق. ومن أصول التنشئة الصوفية تلقين المريد دوام التوبة، وتكرار الأوبة، والصبر والاستعانة بالله على العبادة والمداومة، والإخلاص في ذلك كله، لأن العمل قسمين: "عمل القلب وعمل القلب. ويقال: عمل السباع، وعمل الأرواح، كل ذلك واحد على الجملة، فإذا عمل العبد عملا أو قال قولا، فرضا أو سنة أو نفلا، صلاة أو صياما أو صدقة أو تعلما أو تعليما، أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر، ولاحظ في ذلك سوى الله من خلقه، ولو قلت الملاحظة، فذلك محيط مبطل" (2). والصوفي المتحقق يملك نفسية بها رقة قلب، مما ينفذ له اللطائف، ويكسبه قابلية عالية للقيم والأخلاق السامية، وروح متسامحة لدرجات عالية، وربما تصبح غالية، مع البشر والحجر. ولا بد للمريد أو

(1) ميزان العمل: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ص (42-46).

(2) بيان فضل خيار الناس والكشف عن مكر الوسواس: أبي الحسن علي بن ميمون الغماري؛ تج: خالد زهري. دار الكتب العلمية: بيروت، ط (1)، 2004، ص (92-93).

الشيخ المقبل على التصوف قلبا وقالبا أن يصاب بتجليات مظاهر العلم على ذاته، سلوكيا ونفسيا، ظاهرا وباطنا.

اتبع صوفية المغرب الأوسط الزهد في مآكلهم ومشربهم ومسكنهم، وفي كبح جماحهم إزاء المغريات، وقد نقلت تراجمهم بذلك، فصوفية تلمسان عرفوا باقتصاد المعيشة، والكفاية بالبسيط والقليل، كعبد السلام التونسي وأبو زكريا بن يوغان، وأبو إسحاق بن إبراهيم الإشبيلي، وأبو عبد الله بن البلد، وأبو البيان واضح، وأبو عبد الله بن الملك، وأبو الفضل بن النحوي، وأبو إسحاق إبراهيم التنسي؛ وغيرهم، كلهم عرفوا بالاكْتفاء بالشعير أو الخبز وما دونه⁽¹⁾.

وفي تراجم صوفية بجاية لدى الغبريني أمثال ذلك من صور التقشف والزهد في الدنيا كأبي زكريا يحيى الزواوي، وأبي النجم هلال بن يونس، وأبي الحسن علي الملياني⁽²⁾، وغيرهم شاع عنهم لبس الصوف والمرقع والخرقة كرمز للتصوف، مع مشاركتهم للفقراء في القوت والحضور في الأزمات، والإعتماد على ذواتهم في قضاء حوائجهم، واشتغالهم بالحرف كأبي مدين وابن قنفذ وأبي سليمان داود الوجاهني وأبي عبد الله المستاري؛ وغيرهم كثير.

وهذه التهيئة النفسية التي اكتسبها مشايخ الصوفية ساهمت في تكوين شخصياتهم التي لا يكرهها سلطان المجتمع أو سلطان الدولة، فكانت عقائدهم وأخلاقهم تحكمهم، فهم مؤثرون في غيرهم لا يتأثرون بانحرافات محيطهم، لأجل ذلك مثلوا حائط الصد، والملجأ الروحي النفسي للمجتمع حال وقوع النكبات، وكان لسلطانهم الروحي والمعرفي قوة على القضاء والإصلاح بين الناس، وإرشادهم لسبل السلام، والخروج بهم من الأزمات النفسية التي سببتها الصدمات السياسية والحروب.

ب- إسهامات الصوفية في الحياة الاجتماعية والإصلاحات النفسية بالجزائر:

تمثلت أهم النجاحات التي قدمتها الطرق الصوفية في الجزائر الإصلاحات التربوية والتعليمية؛ بقيادة التنشئة الاجتماعية عبر مؤسسات الوعظ والتعليم والتربية، ثم تعميم النشاط الدعوي في الأسواق والأرياف، فنزلت للنشاط الجمعي الدعوي والإصلاحي والتكافلي، وتمظهر نشاط الزوايا في الجزائر بتبلور:

(1) التشوف: ابن الزيات. ص (88، 102، 78).

(2) عنوان الدراية: الغبريني. ص (136، 169، 177، 199).

- شبكة علاقات عامة بين زوايا الطريقة الواحدة، في ربوع البلاد و خارجها، فكان لكل طريق العديد من المؤسسات و الزوايا و المساجد عبر شبكة متواصلة، تساهم في ترابط الأتباع و المريدين، و تفعيل أي نشاط بينهم، سواء تعليمي أو دعوي أو اجتماعي أو سياسي، كإعلان جهاد المحتل و التعبئة العامة.

- شبكة اتصال و تواصل اجتماعية في الوطن بين جملة من الزوايا و الطرق، لانتشار الطلبة و الدعاة من مناطق مختلفة في أرجاء البلاد، فكان للصوفية مناطق نفوذ لا تصل إليها أيادي الحكام سياسيا أو عسكريا أو قضائيا أو إدارة، لأجل ذلك اكتسبت الصوفية حظوة لدى الحكام عبر تداول الممالك.

- شبكة تكافل اجتماعي لرعاية الأيتام، مساكين، و عابري السبيل، ثقة الناس بورع المشايخ و أهل الطائفة تقودهم للتبرع للزوايا، و أصل قيام الزاوية رعاية الطلبة من الفقراء و المتفرغين للعلم، فكانت كفيل كل قاصد لها، و نظرا لاهتمام الطرق الصوفية بالمناطق النائية البعيد عن سلطان الحكام و عطاءاتهم، توجب عليها مهام الرعاية الاجتماعية للمحتاجين.

- الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية بتنشئة الأجيال الصاعدة على مبادئ إسلامية ونشر علوم اللغة العربية و القرآن و السنة بين صفوف الجزائريين، و مكافحة تأثير الاحتلال النصراني لبعض المدن، وبث المنصرين في أرجاء البلاد. لأجل ذلك كان من أولى مخططات الاحتلال الفرنسي تحطيم نفوذ الزوايا و القضاء على بعضها و اختراق أو اختلاق بعض الطرق لتحجيم دورها في التوعية الاجتماعية و الثقافية، خاصة و أن أغلب الثورات على المحتل الفرنسي انطلقت من الزوايا، و كان مشايخها أحد روابط التواصل مع العالم الإسلامي لتوفير الدعم، و الحشد الشعبي لجهاد المحتل، و رفع معنويات المسلمين.. للصبر و الأمل في الله و الانطلاق للعمل و التعلم، و الايمان بالعمل الجماعي.

يتفق العقلاء أجمع على أن التعليم ميدان ضروري وحتي لتطوير الحركة الفكرية والعلمية، وهو أحد الميادين التي تجلى فيها النشاط الإيجابي للصوفية، وبرزت فيه الطرق والزوايا كمعاهد عليا لتخريج الطلبة المتخصصين في علوم شتى، لما حوته الزوايا من مشايخ ومكتبات و كتاتيب، فرعت المراحل الدراسية من الطفولة إلى المراحل العليا.

ويعود اهتمام الناس في تلك المرحلة بالتعليم بفي لزوايا إلى جملة من

العوامل:

1- تسابق الأولياء في توجيه أبنائهم لتعلم الفقه - علم الظاهر- قصد بلوغ المناصب العليا عند الحكام كالقضاء والحسبة ومختلف الخطط الإدارية، فأتجه التعليم في المغرب وجهة وظيفية.

غير أن المناهج التعليمية الصوفية في الزوايا كانت ذات وجهة علمية تربوية أولا وقبل كل شيء، ثم وجهة وظيفية لاحقة لمن تفوق وتوسع أكثر وتيسر له الالتحاق بالمؤسسات الإدارية أو القضائية. وكثير من مشايخ التصوف ينصرفون عن المناصب الرسمية، كما أن من مهام الزاوية الصوفية الفصل في الخصومات، ثم توسع دورها في القضاء أكثر في مراحل تطور أدوارها لأسباب عدة، منها أن الزوايا كانت أكثر انتشارا وقربا من المحاكم و مراكز القضاء الرسمية الموجودة في الحواضر فقط، و مشايخ الصوفية كانت لهم هيبة و وقارا في قلوب الناس أكثر من غيرهم، فكان لفصلهم في المنازعات قبولا أوسع، و غالب الناس من البسطاء يميلون لفصل المنازعات بالتراضي والود فيلجؤون للمشايخ لتحسن النيات و تطيب الأنفس. وفي المنازعات القبلية تمتعت الزوايا الصوفية بهيبة أكثر وإلزام روحي أكبر على كبراء القبيلة.

2- اقتصار التعليم على الفئات الاجتماعية التي بإمكانها الإنفاق على أبنائها، لأن أجرة المعلم في سائر أنحاء المغرب حتى القرن 6 هـ يدفعها الولي. بينما كانت الزوايا تقدم التعليم مجانا مما أدى إلى تعميم التعليم بين جميع فئات المجتمع، مع توفير الزاوية للمسكن ولماكل للطلبة، فأصبحت قطبا يجذب الطبقات الفقيرة لتدفع بأبنائها للدراسة على نفقة الزاوية، فخففت أعباء السفر وتكاليف العيش ومصاريف الدراسة، بل كانت الزاوية تمنح للطلب في العطل مصاريف السفر لأهلهم، وهي من أولى الأفكار حول " المنحة الجامعية" للطلبة، ولا زال العمل بها إلى يومنا في كثير من الزوايا بالجزائر.

3- تدخل الدول المتعاقبة في سياسة التعليم ومناهجه ومقرراته، فكانت كل دولة توجه دين الناس على دين ملوكها، فالمرابطين اهتموا بفقه الفروع فنظروا له ودعموا المذهب المالكي أكثر، ومنعوا كتب الفلسفة والمنطق، والموحدين اهتموا بفقه الحديث وعلم الكلام والفلسفة فحضوا الطلبة ومولوا المدارس في إطار هذا التوجه، وهكذا العادة مع من تلاهم من الحكام.

أما الزوايا فجعل المتصوفة يعملون فيها على إخراج التعليم من طوق الوصاية و من دائرته الوظيفية إلى إطاره التربوي و العلمي، فضلا عن هدفهم في تعميمه على كل الفئات لأن هنالك شريحة اجتماعية كبيرة عاجزة عن دفع مستحقته المالية.

4- غالب الزوايا الرئيسة كانت تنشأ من مشايخ نهلوا من العلوم قدرا، وشدوا الرحال شرقا وغربا، وبلغوا من التحصيل ما جعلهم في حاجة لبذل ما عندهم من العلم للناس، وتكوين طلبة لهم ليرثوا علمهم وينشروه بين الناس، ناهيك عن رغبة المشايخ في تطبيق مناهجهم وتجاربهم التربوية من خلال تلقين مختلف العلوم النقلية والعقلية. حتى يحقق مشايخ الزوايا الصوفية الأهداف الجوهرية التربوية المرجوة من تأسيسها، قسموا مراحل التعليم إلى ثلاث، هي تعليم الصبيان، تعليم الطلبة، تعليم العوام (التعليم الشعبي):

1- التعليم الابتدائي:

يخص الأطفال الأقل من السابعة، وذلك بتحفيظهم القرآن في الكتاتيب، و كان التعليم مجاني، فمبدأ عدم قبول الأجر كان شائعا بين الصوفية، و إن كان بعض الصوفية يقبلها من ميسوري الحال. ويبدأ الصبيان فيه تعلم القراءة و الكتابة، عن طريق الاستظهار أولا، ثم الكتابة تحت رعاية طلبة الزاوية في الغالب، الذين كانت الزاوية تضمن لهم المأوى و المأكل و اللباس.

يقول ابن خلدون: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة و درجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان و عقائده من آيات القرآن و بعض متون الأحاديث.. و اختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان، باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات."⁽¹⁾

و خصص تعليم الصبيان بالكتاتيب لصدور فتاوى تمنع تعليمهم بالمساجد، لعل رفع الصوت و الأوساخ، و عقد البيع إن كان المعلم يأخذ أجرة⁽²⁾.

اعتمد الصوفية طريقة التعليم المتداولة بين أهل المغرب وإفريقية، بالاعتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف

(1) المقدمة: عبد الرحمن بن خلدون. دار الرائد العربي: بيروت. ط(5)، 1985. ص334.

(2) الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي؛ تح: هشام سمير البخاري. دار عالم الكتب: الرياض. ط(1)، 2003. ج. 5، ص308. - الذخيرة: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي؛ تح: محمد حيي. دار الغرب: بيروت. ط(1)، 1994. ج. 6، ص188.

حملة القراءان فيه. لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعرو ولا من كلام العرب إلى أن يحذق أو ينقطع دونه.

2- تعليم الفتيان:

يمثل المستوى المتوسط والنهائي، ويضم الذين تجاوزوا مرحلة الكتابة وحفظ القرآن عن ظهر قلب. فكانوا يقومون بحفظ مختصرات أمات الكتب في الفقه والحديث وتفسير ولأصول، عن طريق الاستظهار و السرد في مرحلة أولى. و في مرحلة ثانية ينتقل هؤلاء الطلبة إلى حضور شيوخ الزوايا و فقهاء للشرح و التفسير والتعليق عليها. واعتمدوا في عمليتهم التربوية على أسلوب يتراوح ما بين الترغيب و الترهيب، فكان بعضهم يحض تلامذته و مريديه على العلم، مع توضيح فضائله قصد تحبيبه إلى نفوسهم. في حين نهج شيوخ آخرون أسلوب العقاب بشكليته الجسدي والمعنوي. ويلقن الصوفية للطلبة فنونا عديدة في المساجد و الزوايا و الرابطات في حلقات تعرف بالميعاد "ميعاد الدرس". واشتهر جماعة من مشايخ الصوفية بهذا، مثل أبو الفضل بن النحوي (ت514هـ/1119م) في قلعة بني حماد، كان يدرس الحديث و أصول الدين وعلم التذكير⁽¹⁾. و أبو زكريا يحيى الزواوي اختص بتدريس الفقه و الحديث و علم التذكير بالجمع الأعظم ببجاية و بالزاوية المجاورة لهذا المسجد⁽²⁾. وأبو إسحاق التنسي (ت680هـ/1281م) كان يدرس الحديث في تلمسان و ينفق على طلبة البوادي عنده. وخصت الزوايا شهر رمضان ببرامج تعليمية و تربوية خاصة، كدروس فقه الصيام، والمواعظ، و قراءة الأحاديث، فتخصص بعض الزوايا سماع صحيح البخاري أو مسلم، و البعض رياض الصالحين، و تفسير آيات من القرآن، فكان أبو زكريا يحيى الزواوي يرتب في بجاية ميعادا لتفسير القرآن. و في نهاية المراحل الدراسية يكلل المشايخ المتمدرسين بإجازات علمية يمنحها الأساتذة لطلابهم، و كان بعضهم يتشدد في منحها إلا بعد مكابدة و مثابرة⁽³⁾.

3- التعليم الشعبي:

ويشمل عامة الناس، فقد أدى انتشار الزوايا و تمكن الطلبة من العلوم إلى انتشار التربية الصوفية بين طبقات المجتمع، و تحبيب العلم لقلوب الناس، و زيادة

(1) الحقيقة التاريخية للتصوف: الباهلي مكتبة النجاح: تونس. ط 1، 1384. ص (199-198).

(2) عنوان الدراية: الغريبي. ص136.

(3) التصوف في الجزائر خلال القرنين 7 و6 الهجريين: الطاهريوناني. ص230.

مظاهر التدين و طلب الفقه بين العامة، و إقبالهم على دروس المواعظ و التذكير، و اقبال الناس على المشايخ للتعليم عندهم، و كثرت الحضور في المساجد و حلقات العلم و الوعظ. فكان العامة في بجاية تزدهم على دروس أبي زكريا يحي الزواوي في الحديث و الفقه؛ في الجامع الأعظم. و تعمّر حلقات أبو علي حسن المسيلي بالحضور. و كان لابن الحجام في تلمسان مجلس عامر يومي الاثنين و الخميس، يعظ فيه الناس و يذكرهم. و في القرن السابع زادت كثافة الدروس و الحضور، و اشتهر جماعة من شيوخ الصوفية بكثرة الحلق و المجالس العلمية كأبي القاسم أحمد بن عجلان (ت 675هـ/1277م)، و أبي عثمان سعيد الجمل، و أبي زكريا اللقنتين، و أبي العباس أحمد المعافري، و أبي تميم الواعظ (قرن 7هـ).

ومشايخ الصوفية بالجزائر في زمنهم رفعوا لواء محاربة الجهل و الأمية أينما حلوا، و منهم من أنزل عملية التعليم منزلة أفضل من السياحة و التجرد، و ساهم هذا التوجه الصوفي لشيوخ الزوايا الصوفية بشكل واضح في التشديد على أهمية العلم و التعلم، شعارهم دائما المقولة الصوفية: من تصوف و لم يتفقه فقد فسق، و من تصوف و تفقه فقد تحقق. و رغبة منهم في تقريب العلوم للطلبة و المريدين، و مساعدتهم على استيعاب مفاهيم و عبارات التصوف، اشتهرت أساليب المختصرات، لتسهيل الحفظ و الضبط. إلى جانب مساهمة شيوخ الزوايا في التدريس داخل زاويتهم، لم يدخروا جهدا في جلب علماء من الحواضر الكبرى مثل فاس و مراكش و القيروان رغبة منهم في تقريب الشقة على طلبتها و إعفائهم من التنقل، خاصة أيام اضطراب البلاد و اشتعال الفتنة.

قادت عملية تعميم التعليم، و النشاط الدعوي إلى تنشئة شعبية علمية و أخلاقية و سلوكية، فتهيئة الجماهير للتربية العامة و الأخلاق المجتمعية العامة، فسادت مظاهر الصبر و الإيثار و التعاون الجمعي، و نفسية المسؤولية الفردية اتجاه الجماعة و المجتمع، بالإسهام في نشاطاتها الاجتماعية كافة من تربية إلى نظافة إلى الحملات التحسيسية، و هو ما نلاحظه ليومنا في سكان بجاية خاصة بالقرى و المداشر، لأجل ذلك تبلور الوعي الشعبي لارتفاع سقف ثقافته العامة نتيجة انتشار التعليم الخاص بالمدارس و العام بالمساجد و الأسواق.

من أئمة التصوف في التنشئة الشيخ الإمام أبو مدين؛ وقد "اعتمد المسجد و الرابطة و بيته إطارا لنشاطه العلمي و الصوفي. فهو يدرس الوعظ بعد صلاة الصبح

بمسجد أبي زكريا يحي الزواوي بحومة اللؤلؤة، ينشر من خلاله طريقته الصوفية البسيطة⁽¹⁾. ويلقن في بيته و مسجده الثاني العلوم والمعارف، كتفسير القرآن، وتدرّس الحديث والفقه، وإطلاع المريدين و الطلبة على حيثيات مصنفات التصوف الشرقية كالرسالة القشيرية والإحياء⁽²⁾، والمقصود الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، حتى يوسع من مداركهم و يرشدهم إلى أصول طريقته ومنابعها الأصلية، و يراقب الجانب التطبيقي من أوراذهم برابطة ابن الزيات⁽³⁾. واشترط الشيخ في كل من يريد الولوج إلى رحاب التصوف أن تتوفر فيه أربعة شروط هي: الزهد و العلم و التوكل واليقين⁽⁴⁾. ولعل أبرز عامل جعل طريقة أبي مدين ترقى إلى مستوى أخلاقي وفكري رفيع هو التزامها بالقرآن والسنة⁽⁵⁾.

واستمرت طريقته قائمة في بجاية وغيرها من المدن المغربية، ممثلة في محمد بن علي الصنهاجي القلعي (ت628هـ)، و محمد بن إبراهيم الأنصاري أبو علي منصور الملباني. وقد أخرج أبو مدين التصوف من داخل حواضر المغرب الأوسط كقلعة بني حماد و بجاية و تلمسان و قسنطينة و بونة أواخر القرن السادس الهجري إلى البوادي والأرياف، و بهذا يكون قد فتح باب التصوف الشعبي على مصراعيه أمام العامة، وتفاعل مشايخ الصوفية مع المجتمع وقادوا حملة التنشئة العلمية الدينية. فالتصوف كدعوة لا بد له من نشاط جماعي واقترب من المجتمع بمختلف طبقاته، ليمارس دوره التربوي والإرشادي، وهنا برز التصوف الشعبي، وأولى ارهاصاته البارزة انتشار الزوايا في أرجاء البلاد، وتوسع المهام المنوطة بها.

تلك جملة من إصلاحات الصوفية في مجال التنشئة الاجتماعية بجانبها التعليمية، الذي ترتب عنه توعي للمجتمع وإصلاح النظرة السيئة لبعض المتصوفة وأتباعهم إلى النفس، لدرجة يرون فيها أن كل رغبة أو شهوة أو طلب يمكن أن تتوجه به، لا بد أن يكون مذموما معلولا، وينبغي أن تصدر في كل مشيئاتها، وأن تمنع من جميع مشيئاتها، وأن تخالف في أوامرها ورغباتها. ودفعهم إلى هذا الاعتقاد فكركهم عن النفس بأنها تعمل من خلال البدن المادي ومن أجله. غير أن الشهوة في النفس لا تحمد

(1) أعلام المغرب العربي: عبد الوهاب منصور. ج2، ص16.

(2) عنوان الدراية: الغبريني. ص57.

(3) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص37.

(4) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص18.

(5) نفح الطيب: المقرئ. ج7، ص137.

ولا تدم في حد ذاتها، لأنها وضعت للذة والابتلاء، فلا لوم على الفرد بتحريكها، وإنما اللوم أو الحمد على كيفية الاستعمال وأين توجه.

وذا ما بينه منهج الغوث أبي مدين، وتبناه الشاذلية من بعده، فقد كان أبو مدين شعيب في بجاية، يتجمل بأحسن الثياب حتى شبهت حالته بحالة الملوك⁽¹⁾، لأنه يرى أن التوصل إلى كشف الحقائق الإلهية لا يتم بلباس الصوف والمرقعة والخرقعة. وإنما بالزهد والعلم والتوكل واليقين⁽²⁾.

وهو بذلك يصدق فيه قول أبي عبد الله محمد بن أبي الطوبى في قوله:

ليس التصوف لبس الصوف ترقرعه ولا بكائك إن غنى المغنون

ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا

بل التصوف أن تصفو بلا كدر وتتبع الحق والقرآن والدنيا⁽³⁾.

وكذلك كان أبو عبد الله بن عبد الحق اليعفري (ت625هـ/1228م) جميل المنظر رائق الملبس⁽⁴⁾، وكان أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق (ت681هـ/1282م) أبيض الثياب؛ حتى قال عنه فقهاء زمانه أنهم لم يروا أحسن منه صورة، ولا أجمل منه هيئة، ولا أطيب منه رائحة⁽⁵⁾.

و"الظاهر أن ثورة إخراج التصوف من دائرة المرقعة والخرقعة، التي بدأها أبو مدين وتأثر بها أبو الحسن الشاذلي وواصلها ابن مرزوق؛ قد بقيت محصورة على مستوى كبار الصوفية الذين تعمقوا في التصوف ونظرياتهم"⁽⁶⁾.

اتبع الكثير من كبار صوفية المغرب الأوسط المنهج النبوي في مآكلهم ومشربهم ومسكنهم، وفي كبح جماح نفوسهم إزاء مغريات الدنيا وزينتها، وأجمعت كتب الطبقات والتراجم على بساطة حالهم وتواضعهم في شؤونهم واقتصادهم في معيشتهم. وتعد الأخلاق الفاضلة القاسم المشترك الذي تخلل كل أصحاب الاتجاهات الصوفية

(1) أنس الفقير: ابن قنفذ. ص94.

(2) عنوان الدراية: الغبريني. ص63.

(3) خريدة القصر وجريدة العصر: أبو النعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني؛ تج: محمد المروني وآخرون. الدار التونسية: تونس. ط 0، 1966. ج1، ص172.

(4) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: أبو زكريا يحيى بن محمد بن خلدون؛ تج: عبد الحميد حاجيات. المكتبة الوطنية: الجزائر. ج1، ص112.

(5) المجموع: ابن مرزوق. الورقة 6. نقلا عن: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7: الطاهر بونابي. ص164.

(6) التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7: الطاهر بونابي. ص165.

المختلفة⁽¹⁾. ويتجلى ذلك في قيم الرحمة والإيثار والإحسان والتواضع التي جعلوها مبدأ وغاية، حتى صارت من مكوناتهم الشخصية⁽²⁾.

تشير الكثير من كتب التراجم إلى مشاركة الشيخ الصوفي للعامة والفقراء والمعوزين، وتعاطفهم مع العامة أيام الأزمات والنكبات والكوارث. وكان طائفة من كبار الصوفية قدوة في التواضع وعدم سؤال الناس أو طلب عونهم؛ مع أنهم من ميسوري الحال وممن تحت يدهم خدم وعبيد⁽³⁾. فكان الأمير المرابطون الصوفي أبو زكريا بن يوغان (ت 537هـ/1242م) يسعى في حوائجه بنفسه دون استعانة بخدم أو جند، ويجلب الحطب من الجبال بنفسه إلى قصره⁽⁴⁾. وكان عمر الحباك يحمل الزبل على رأسه ليبيعه في السوق⁽⁵⁾، وأبو الحسن عبيد الله النفري (ت 642هـ/1244م) في بجاية كان ينقل دلاء الماء على كاهله من الجبال⁽⁶⁾.

هاته التصرفات؛ هي لتربية النفس وقهرها عن الكبر، والزامها بالتواضع، رغم أن أكابر الناس كانوا يسعون في خدمتهم والتقرب منهم، فيردونهم عن سعيهم، ويصرون على الاعتماد على أنفسهم ومخالطة الناس في أعمالهم. وكانوا يواسون الفقراء في معاناتهم، فأبو علي عمر الحباك عرف بكثرة مجالسته للفقراء دون حُصْر؛ زمن البرد، وإن أعطي واحدا؛ تصدق به (الحصير) عليهم، وفي ذا لفت انتباه الأغنياء للرفق بالفقراء، ومواساة للمساكين بمشاركتهم معاناتهم فعليا، وأنس لهم؛ للصبر على مصاعب الحياة. كما يظهر الشعور الإنساني المرفه في تركيبة الشخصية الصوفية من خلال معاملاتهم لمختلف الخلائق⁽⁷⁾.

يغلب على صوفية المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع طابع النشاط والكد والاعتماد على النفس من خلال مزاولتهم لأنواع مختلفة من الحرف والوظائف لكسب قوتهم اليومي، لأن الاشتغال في صلاح القوت⁽⁸⁾، فاحترف أبو مدين

(1) المرجع نفسه. ص 167.

(2) المغرب والأندلس: إبراهيم القادري. ص 139.

(3) التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7: الطاهر بونابي. ص 170.

(4) التشوف: ابن الزيات. ص 102.

(5) المرجع نفسه: ص 459.

(6) عنوان الدراية: الغبري. ص 177.

(7) المغرب والأندلس: إبراهيم القادري. ص 140.

(8) التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7: الطاهر بونابي. ص 170-172.

رعي الغنم⁽¹⁾، وأبو زكرياء بن يوغان اشتغل برعي الإبل⁽²⁾. واشتغل بالفلاحة أبو النجم هلال بن يونس الغبريني⁽³⁾، ومثله أبو سليمان داود الوجهاني⁽⁴⁾، وأبو عبد الله المساري وابن أخيه أبي محمد عبد الواحد كانا يعتشان من أرض لهما⁽⁵⁾. وكان بنو مرزوق أهل دين وتصوف، يحترفون العلم والتجارة في دكاكين لهم بالقيصرية، ودرب مرسى الطلبة بتلمسان، وفلاحة الأرض بالعباد، وأبرزهم أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق (ت 681هـ/1282م). والطبقة الدنيا كانت تعتقد في الصوفية عامة والمشايخ والأولياء الزهاد - خاصة - مخرجاً من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية. فكان أهل تلمسان يطلبون الدعاء من أبي محمد عبد السلام التونسي (ت 512هـ/1118م)، وأهل بجاية يقصدون أبا الحسن عبيد الله الأزدي (ت 691هـ/1292م) طلباً للدعاء⁽⁶⁾.

الخاتمة:

نخلص في ختام البحث إلى نتائج تكشف أن:

- التصوف ممارسة لحياة روحية تحت إشراف شيخ.
- ساهمت الآفات الاجتماعية في المغرب الأوسط قبل القرن السادس عصر الدولتين الحمادية والمرابطية في تهيئة الأرضية لاحتضان الفكر الصوفي.
- تعتبر الجماعة الصوفية من الهياكل الاجتماعية المشاركة في عملية التنشئة الاجتماعية.
- امتاز الصوفية عن غيرهم بالتعمق في معنى التربية النفسية والاجتماعية.
- اتبع صوفية المغرب الأوسط المنهج النبوي في مآكلهم ومشربهم ومسكنهم. وتعد الأخلاق الفاضلة القاسم المشترك الذي تخلل كل أصحاب الاتجاهات الصوفية المختلفة.
- كان صوفية المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع يغلب عليهم طابع النشاط والكد، والاعتماد على النفس من خلال مزاولتهم لأنواع مختلفة من الحرف والوظائف لكسب قوتهم اليومي.

(1) نيل الإبهاج: الفنبكي. ص 127.

(2) التشوف: ابن الزيات. ص 102.

(3) عنوان الدراية: الغبريني. ص 169.

(4) المرجع نفسه: ص 225.

(5) المجموع: ابن مرزوق. ورقة 12. نقلاً عن: التصوف في الجزائر 6 و 7: الطاهر بونابي. ص 171.

(6) عنوان الدراية: الغبريني. ص 72.

وفي الختام نسأل المولى قبول العمل، و نوصي بمزيد التعمق في تراث صوفية الجزائر الميثوث بين المكتبات التركية و الفرنسية، لتصحيح الكثير من الأنماط الفكرية العالقة في أذهان انصاف الدراسات.

المراجع:

- 1- أثر الطريقة الصوفية في الحياة الاجتماعية لأعضائها: منال عبد المنعم السيد جاد الله. رسالة دكتوراه. إشراف: محمد علي أبو ريان، فاروق أحمد مصطفى. جامعة الإسكندرية: كلية الآداب، قسم الأنثروبولوجيا. السنة الدراسية: 1990-1991.
- 2- أخبار المهدي بن تومرت: أبو بكر علي الصنهاجي البيدق؛ تح: عبد الحميد حاجيات. المؤسسة الوطنية للكتب: الجزائر. ط(1)، 1986.
- 3- أنس الفقير وعز الحقيير: أبو العباس أحمد بن القنفذ القسنطيني؛ تح: محمد محمد الفاسي، أودلف فور. المركز الجامعي للبحث العلمي: الرباط. ط (1)، 1965. ص 109.
- 4- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل: عبد الكريم الجيلي. دار الفكر: بيروت. ط (1)، ددت.
- 5- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: أبو زكريا يحيى بن محمد بن خلدون؛ تح: عبد الحميد حاجيات. المكتبة الوطنية: الجزائر.
- 6- بيان فضل خيار الناس والكشف عن مكر الوسواس: أبي الحسن علي بن ميمون الغماري؛ تح: خالد زهري. دار الكتب العلمية: بيروت. ط(1)، 2004.
- 7- ترتيب السلوك: تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري؛ تح: خالد الزهري. دار الكتب العلمية: بيروت. ط(1)، 2004.
- 8- التشوف إلى رجال التصوف: أبو يعقوب يوسف بن الزيات النادلي؛ تح: أودلف فور. مطبوعات إفريقيا الشمالية: الرباط. ط (1)، 1958.
- 9- التصوف الإسلامي بعض ما له وما عليه: محمد زكي إبراهيم. العشيرة المحمدية: القاهرة. ط (1)، 1980.
- 10- التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7: الطاهر بونابي. دار الهدى: باتنة، ط1، 2004.
- 11- التصوف و سيكولوجية المتسامي بين الدافع و الغاية؛ دراسة استكشافية: وليد منير. مجلة إسلامية المعرفة: عمان. العدد 36، السنة التاسعة؛ ربيع 1425هـ/2004م. ص 124.

- 12- التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد الكلاباذي أبو بكر. دار الكتب العلمية: بيروت. 1400.
- 13- خريدة القصر وجريدة العصر: أبو النعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني؛ تح: محمد المروني وآخرون. الدار التونسية: تونس. ط ()، 1966.
- 14- الرسالة القشيرية: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي؛ تح: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف. دار الشعب: القاهرة. ط ()، 1989.
- 15- السير والسلوك إلى ملك الملوك: قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي الصوفي؛ تح: سعيد عبد الفتاح. مكتبة الثقافة الدينية: القاهرة. ط (1)، 2002.
- 16- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيا العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأغبر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون. دار الكتاب اللبناني: بيروت. ط ()، 1983.
- 17- علم النفس الفلسفي: دونيسل جي ف؛ تر: سعيد أحمد الحكيم. دار الشؤون الثقافية: بغداد. ط ()، 1986.
- 18- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني؛ تح: رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع: الجزائر. ط ()، 1981.
- 19- عوارف المعارف: عبد القاهر بن عبد الله السهروردي. الكتاب العربي: بيروت. ط ()، 1966.
- 20- الغنية لطايب الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية: عبد القادر الجيلاني الحسني.
- 21- في التصوف والأخلاق: عبد الفتاح عبد الله بركة. دار القلم: الكويت. ط (1)، 1983.
- 22- المقدمة: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون؛ تح: حجر عاصي. مكتبة الهلال: بيروت.
- 23- المؤتمر العالمي الخامس للتربية الإسلامية: فاروق أحمد مصطفى.
- 24- وصف إفريقيا الشمالية الصحراوية: أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي. نشر هنري بريس: الجزائر. ط ()، 1039.